أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم – المكي – فقد جاء بأسلوب خاص يعهده المخاطب ، وبمنهج واضح في الخطاب ، وموضوعات محددة تناولتها السور المكية ، ومن ثم كان موقفه من المدعوين – وهم أهل مكة – موقفاً خاصاً ...

فأهل مكة – حين نزول القرآن الكريم على النبي (ﷺ) كانوا أهل شرك وعباد أصنام ، وأهل رياسة وسيادة ، دينهم العناد ، ولقون عند كبريائهم ، يحضون الجماهير على عدم السماع للقرآن لتأثيره القاهر قائلين لهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(١) وأحيانا كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون ، لأنهم يقامون هذا القرآن في نفوسهم ، فكأنهم صم لا يسمعون : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢) ولقد بين القرآن الكريم واقع الجاهلية الأولي وواجه تصوراتهم الاعتقادية التى ورثوها عن آبائهم ، وزعموا أنها من دين الله وصاغوها في شرائع لتخضع لها أعناق المشركين .....

كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله – الذي جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها ! – ، وسمت نفسها اسما خاصاً وهو "الحمس" وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب ، ومن هذه الحقوق – فيما يختص بالطواف بالبيت – أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم ، أما بقية العرب فلا تطوف في ثياب لبستها من قبل . فلابد وأن تستعير من ثياب الحمس للطواف ، أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلا طافوا عرايا وفيهم النساء !!

---

١ – سورة فصلت من الآية رقم : (٢٦) .

٢ – سورة فصلت الآيتان رقم : (٥ ، ٦) .

وفي مواجهة هذا الواقع لمشركي العرب ، وهو مزاولة فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام ، وقيهم النساء ، زاعمين أن الله أمرهم بها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها ، يقول الله – تعالي – في ذلك : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

لذلك نري أن موضوعات الخطاب في السور المكية قد شملت أصول الإيمان الاعتقادية من الإلهيات ، والوحي ، والرسالة ، والبعث ، والجزاء ، كما تضمنت أصول التشريع الإسلامي إجمالاً ، والآداب ، والفضائل الأساسية ...

أما فيما يتعلق بأسلوب الخطاب في السور المكية فقد جاء الخطاب بأسلوب فطري ، يخاطب الفطرة السوية ولا يخالفها ، يتخلل ذلك محاجة المشركين ، ودعوتهم إلي الإيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وبطلان ضلالاتهم وخرفاتهم ، مذكراً إياهم بيوم الفصل ، وبالصاخة ، وبالقارعة ، وبالحاقة .. واصفاً لهم سقر وزبانيتها ، وجهنم وملائكتها .. كل ذلك بأسلوب إلهي معجز ، انفرد بالسجع القصير ، والأداء الخطابي الغامر للكيان الجسدي ، الباعث فيه روح الهداية بعد الضلال ... الذي لم يغفل تذكير الإنسان من خلال ما هو مألوف من مشاهد الحياة الدالة على قدرة الله – تعالي – وعظمته .

وقد اعتمد أسلوب الخطاب في السور المكية ، ضرب الأمثال ، وذكر القصص ، والبيان من خلال القسم ... فما جاء في ضرب المثل في القرآن الكريم ، ذكر القرية المطمئنة ، والرجلين ، والعبد المملوك .... الخ

---

١ – سورة الأعراف الآيتان رقم : (٢٧ ، ٢٨) . وانظر : في ظلال القرآن – سيد قطب ٣ / ١٢٧٦ – ١٢٨١ .

وما جاء في القسم وجدناه إما شيئاً أنكره بعض الناس ، أو احتقر لعدم الوقوف على فائدته ، فنزل القرآن الكريم بأسلوب القسم – وهو أسلوب معلوم عند العرب – حتى لا يكون لهم عذر في جحودهم وإنكارهم .

والمتأمل في القرآن الكريم يري أن القسم جاء فاتحة للسور المكية في خمس عشرة سورة ، وهي : (الصافات ، الذاريات ، الطور ، النجم ، المرسلات ، النازعات ، البروج ، الطارق ، الفجر ، الشمس ، الليل ، الضحي ، التين ، العاديات ، العصر) .

وأسلوب القسم في أوائل السور المكية ، منهج من مناهج الاقناع العقلي ، القائم على الدلائل المحسوسة ، ومن ثم نري في أقسام القرآن الكريم ، أقساماً يألفها العرب ، ومن أعجب الأقسام في ذلك القسم بالخيل ، لينوه بشأنها ، ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا • فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا • فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا • فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا • فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا • إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ .....** ﴾ (١) .

هنا جاء القسم " بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في نفسه الذعر والفرار !

يليه مشهد في النفس من الكنود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور ، وتحصيل ما في الصدور !

---

١ – سورة العاديات الآيات رقم : (١ – ٦) .

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثرة والجمع ... إلي نهايتها جميعاً ، إلي الله فتستقر هناك : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (١) .

والايقاع الموسيقي فيه خشونة ، ودمدمة ، وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المفر الذي تتشئة القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد ... فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك بتثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة فجاءة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .:. فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار " (٢) .فألفاظ السورة كلها ألفاظ حية متحركة ، وفي صدرها نشاط وثورة ، وأخذ ورد ، وكر وفر ، وهجوم ودفع ، وإثارة لما كان مستورا ، وبعثرة لما كان مجموعاً ، وجمع لما كان مبعثراً ... وصدق الله العظيم : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

ومن أساليب الخطاب في السورة المكية تكرار القصص القرآني كقصة إبليس في السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء والرسل ...

ومن استقراً قصص القرآن المجيد ، تبين أن القصة الواحدة مكونة من عدة وقائع ، وأن كل واقعة فيها عبرة ، وعظة ولها مغزى ، وأن المقصود من ذلك مجموعة العظات والعبر التي في وقائعها ... فقد يقتضي أسلوب الخطاب تذكير النبي (ﷺ) بما قاساه الرسل الكرام من قبله من تكذيب ، وسخرية ،

---

١ - سورة العاديات الآية رقم : (١١) .

٢ - في ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٩٥٧ .

٣ - سورة الحشر الآية رقم : (٢١) .

واستهزاء ، فتذكر القصة أو القصص وتكون واقعة الإيذاء والاستهزاء موضع الإسهاب والإطناب .

وقد يقتضي أسلوب الخطاب القرآني تذكير المخاطبين المعاندين ، بما نال الجاحدين من قبلهم ، فتذكر القصة أو القصص مع الإسهاب والإطناب في الإغراق بالطوفان ، وإرسال الصواعق .

وقد يقتضي أسلوب الخطاب القرآني ، أن الله يؤيد رسله بالمعجزات ، فتذكر القصة مع الإسهاب والإطناب .

فأسلوب القرآن الكريم في القصص القرآني ، له منهجه المخالف للمعهود في أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ... فالقرآن الكريم لا يسردها لأن تكون تاريخاً محفوظا على صورة كتب التاريخ ، التى تذكر فيها الوقائع مرتبة حسب زمن وقوعها ، وإنما هو يذكر لأجل العبرة والعظة ، وبيان الأحكام الإلهية ، والأحكام العملية ، وليبني فيها السنن العامة في سير المجتمع ، وما تصلح به الأمم في حياتها .....

التعريف بالقصص النبوي

جاء في معاجم اللغة :

(قص) الثوب وغيره – قصا : قطعه بالمقص ، و – الشيء : تتبع أثره . وفي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (١) . ويقال : قص أثره . و – القصة : رواها . ويقال : قص عليه الرؤيا : أخبره بها .

(تقصص) – يقال : تقصص أثر القوم ، وتقصص الخبر : تتبعه .

(الأقصوصة) : القصة الصغيرة . (ج) أقاصيص .

(القاص) : الذي يروي القصة على وجهها . و – : الذي يصنع القصة . (ج) قصاص .

(القصص) : رواية الخبر . و – : الخبر المقصوص .

(القصاص) : القاص .

(القصة) : الحديث . و – الشأن . و – : حكاية تستمد من الخيال أو من الواقع أو منهما معاً ، وتبني على قواعد من الفن الأدبي (ج) قصص (٢) .

يقول صاحب المفردات :

القص : تتبع الأثر ، يقال : قصصت أثره والقصص : الأثر قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (٣) . والقصص : الأخبار المتتبعة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (٤) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي

---

١ – سورة القصص من الآية رقم (١١) .
٢ – المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – مادة (قص) / ٥٠٤ .
٣ – سورة الكهف من الآية رقم (٦٤) .
٤ – سورة آل عمران من الآية رقم : (٦٢) .

الأَلْبَابِ ﴾ (١) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ (٢) ، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

من هذا نقول :

أن القصص يعني : تتبع الاخبار وروايتها على وجهها دون تكلف في حقيقتها ، لتذكير الناس بها . والخبر : ما ينقل ويتحدث به قولاً أو كتابة . يقال : (خبر) الشيء : علمه . و (تخبر) الشيء : عرفه على حقيقته . (الخبير) : اسم من أسماء الله تعالى – الحسنى – : العالم بما كان وما يكون . و – : ذو الخبرة الذي يخبر الشيء بعلمه (٧)

والنبأ : الخبر . ـ(ج) أنباء . (النبوءة) الإخبار عن الشيء قبل وقته حزرا وتخميناً . و – : الأخبار عن الله – عز وجل – . و – – : منصب النبي وجماع مميزاته وخصائصه . (النبئ – والنبي) : إنسان يصطفيه الله من خلقه ليوحي إليه بدين وشريعة . (ج) أنبياء (٨) . فالخبر المؤلف من وقائع ومشاهد وأحداث

---

١ – سورة يوسف من الآية رقم (١١١) .

٢ – سورة القصص من الآية رقم : (٢٥) .

٣ – سورة يوسف من الآية رقم : (٣) .

٤ – سورة الأعراف الآية رقم (٧) .

٥ – سورة النمل الآية رقم : (٧٦) .

٦ – سورة الأعراف من الآية رقم : (١٧٦) ، انظر المفردات في غريب القرآن – الأصفهاني – كتاب القاف ٤ / ٤٠٥ .

٧ – المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – مادة (خبر) / ١٨٣ – ١٨٤ .

٨ – المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – مادة (نبأ) / ٥٩٨ .

تتبع بعضها بعضاً سمي قصة ، وكذلك الأخبار التى وردت في القرآن الكريم سميت قصصاً مما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر ، أو نبأ ، أو حديث .

ولقد استعمل القرآن الكريم ذلك ، وإن كان قد فرق بين هذه الكلمات في الاستخدام جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز ، قال تعالي : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ (٣) ، كما قال سبحانه تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٥) ، وقال – أيضاً – ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ..... ﴾ (٦) .

وفي القرآن الكريم آيات تتحدث عن أخبار الماضي بأنها أنباء الغيب ، أو أنباء ما سبق ، ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ (٨)

وفي الخبر والإخبار يقول الله – تعالي : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٩) ، ويقول – جل شأنه – فيما يتعلق بأحداث

---

١ – سورة إبراهيم من الآية رقم : (٩) .
٢ – سورة الشعراء الآية رقم : (٦٩) .
٣ – سورة هود من الآية رقم : (١٢٠) .
٤ – سورة طه الآية رقم : (٩) .
٥ – سورة الذاريات الآية رقم : (٢٤) .
٦ – سورة النازعات من الآيتين : (١٥ ، ١٦) .
٧ – سورة آل عمران من الآية رقم : (٤٤) .
٨ – سورة طه من الآية رقم : (٩٩) .
٩ – سورة محمد الآية رقم : (٣١) .

القصص النبوي

إن القصص – عموماً – له أثره القوى في الحياة الإنسانية ، وتوجيه سلوك ونشاطات المجتمعات إلي الوجهة التى يريدها القادة المصلحون ... وقد أتيح لها أن تلبس أكثر من ثوب ، وأن تطلع على الناس في أكثر من وجه ... مقروءة ومسموعة ، ومشاهدة .....

ورسالات الأنبياء والرسل السابقين لم تغفل أمر القصة ، ولم تنزل من شأنها ، بل جعلتها من مقدمات الخطاب الديني في التوجيه ، والإرشاد ، والتذكير، وجعلت لها مكاناً بما تقص على الناس من أنباء الرسل ، وما وقع لهم مع أقوامهم ... من مؤمنين وكافرين .

وفي القرآن الكريم ذكرت القصة كاملة دون تكرار ، كقصة يوسف – عليه السلام – ، وانفردت بسورة كاملة وهي السورة الثالثة والخمسون حسب ترتيب السور المكية ، هي الثالثة في النزول بعد سورة الإسراء .

هذه السورة نزلت أيام الشدة التى لاقاها رسول الله (ﷺ) بعد وفاة عمه أبي طالب ، ووفاة زوجه خديجة أم المؤمنين – رضي الله عنها – .

كما أنها سلكت مسلكاً خاصاً في الخطاب يتناسب مع طبيعة القصة ، ويؤديها أداء كاملاً ، ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف – عليه السلام – بتأويلها ، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها ، أو جملة حلقات في سورة ، وتكون بقيتها في سورة أخرى .

فالسورة تعرض شخصية يوسف – عليه السلام – عرضاً كاملاً في القصة في كل مجالات الحياة ، وفي كل أبعادها ، وبكل استجابات هذه الشخصية ، وتعرض أنواع الابتلاءات التى تعرض لها ، وما فيها من تشبيب النسوة به ، وتتضمن أخباراً عن حال امرأة العزيز ، ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، الأمر

الذي ناسب عدم تكرارها ، وبذلك ظلت القصة صورة صادقة للخطاب الإلهي الحق ، مع تنوع الشخصيات .

كما أن قصة يوسف – عليه السلام – قصة أسرية ، أحداثها ومشاهدها مرتبطة موصولة ، لا تقبل الانفصام ، ومن ثم جاءت متكاملة غير مكررة .

يقول السيد محمد رشيد رضا :

" والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل – عليهم السلام – ، والاستدلال في كل منهما على كونها وحيا من الله – تعالي – ، دالا على رسالة محمد خاتم النبيين (ﷺ) بآيتين متشابهتين ، ففي آخر قصة نوح من الأولي : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا ﴾ (١) ، وفي آخر الثانية : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٢) ، وإشارة التأنيث في الأولي للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة ، وقيل : للسورة ، وإشارة التذكير في الثانية لقوله تعالي في أول السورة : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ ﴾ (٣) ، والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الأعراف وغيرها ، أن تلك قصص للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها ،وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم ، لإنذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب ، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز (٤) ، وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد ، وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتهل فنبئ

---

١ – سورة هود من الآية رقم : (٤٩) .

٢ – سورة يوسف الآية رقم : (١٠٢) .

٣ – سورة يوسف من الآية رقم : (٣) .

٤ – انظر بيان ذلك في : تفسير القرآن الحكيم – السيد محمد رشيد رضا ١١ / ١٦٨ ، ١٦٩

، وأرسل ودعا إلي دينه ، وكان مملوكاً ثم تولي إدارة الملك لقطر عظيم ، فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطورائها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه واخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة ... وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلي تمام المائة في تاريخ يوسف ، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل عليهم السلام (١) .

من مشاهد القصة :

ولو تأملنا مشاهدها لوجدناها تقص علينا من حياة نبينا محمد (ﷺ) الكثير، فالذي حدث ليوسف – عليه السلام – ، حدث للنبي – صلي الله عليه وسلم – وليس هذا بغريب عنا .

فيوسف – عليه السلام – قد أوذي من إخوته ، وهم أقرب الناس إليه ، وسيدنا محمد (ﷺ) أوذي من أهله ، ومن أقرب الناس إليه .

ابتدأت القصة بالرؤيا الصادقة – وهي من الوحي الإلهي – ، وكذلك أول ما بدئ به نبينا محمد (ﷺ) في نبوته بالرؤيا الصادقة التي تجئ كفلق الصبح .

تآمر اخوة يوسف على قتله ، أو طرحه أرضاً ، أو إلقائه في الجب ، كذلك – أيضاً – بالنسبة لسيدنا محمد (ﷺ) فقد تآمرت قريش على قتله ، أو إخراجه إلي أرض بعيده .

ألقي بسيدنا يوسف – عليه السلام – في الجب ، وكذلك أخرج النبي (ﷺ) وأدخل الغار ، فمن الجب كان الإيواء ، ومن الغار كان الإيمان بالنبي (ﷺ) .

---

١ – المصدر السابق : ١١ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

دخل يوسف – عليه السلام – السجن ، ولبث فيه بضع سنين ، وكذلك حوصر النبي (ﷺ) في شعب بني هاشم ....

أعز الله – عز وجل – يوسف – عليه السلام – وأخرجه من السجن ، وجعله بجوار الملك ، فاكرم أباه واخوته ، وكذلك – أيضاً – أعز الله – عز وجل – نبيه الخاتم ، ونصره على قريش وفتح مكة ، وملكه زمام الأرض ، ونواصي القوم ...

نخرج من هذا البيان في الخطاب القرآني بما يلي :

أولاً : أن سورة يوسف – عليه السلام – قد أوقفت الكلام على نبي واحد من أنبياء الله – تعالي – هو يوسف بن يعقوب – عليهما السلام – الأمر الذي لم يتكرر في القرآن .

ثانياً : أن قصة يوسف – عليه السلام – لم ترد في موضع آخر من القرآن الكريم ، ولو على سبيل الإشارة والتنويه ... بخلاف غيره من الأنبياء والمرسلين ، فقد ذكرت أنباؤهم في أكثر من موضع .....

لقد كان أول من ذكر آدم – عليه السلام – ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في خمسة وعشرين موضعاً ، في تسع سور من القرآن الكريم وهي : البقرة ، وآل عمران ، والمائدة ، والأعراف ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، ويس .

بينما ذكر نوح – عليه السلام – في ثلاثة وأربعين موضعاً ، وذكر هود – عليه السلام – في سبعة مواضع ، أما صالح – عليه السلام – فقد ذكر في تسعة مواضع ، وكذلك أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – ذكر في خمسة وعشرين موضعاً ، أما لوط – عليه السلام – وهو ابن أخي إبراهيم – عليه السلام – فقد ورد ذكره في سبعة وعشرين موضعاً ، وذكر إسحاق بنْ إبراهيم – عليهما السلام – في ستة عشر موضعا ، أما يوسف عليه السلام – فقد ورد اسمه في

السورة التى سميت باسمه عشرين مرة ، ثم ذكر مرة واحدة في الأنعام ، ومرة في غافر ، فكأن سورة (يوسف) قد استأثرت باسمه ، وبكل شيء يتصل به .

كذلك – أيضاً – ورد اسم (شعيب) – عليه السلام – في عشرة مواضع ، أما يعقوب بن إسحاق ، وأبو يوسف – عليه السلام – ، والمسمي عند اليهود (بإسرائيل) ، فقد ورد ذكره ست عشرة مرة .

وفيما يتعلق بموسى – عليه السلام – فقد نال النصيب الأكبر من الذكر ، حيث بلغت المواضع التى ذكر فيها اسم موسى في القرآن الكريم نحو مائة وسبعة وثلاثين ... وما ذكر عن موسى – عليه السلام – في هذه المواضع جميعاً ، يكون قصة كاملة عن حياة كليم الله موسى – عليه السلام – منذ ولادته إلي أن بلغ أشده واستوى ، وإتيانه الحكمة والعلم ، وهجرته إلي مصر ، وعودته إليها مع أخيه هارون – عليهما السلام – مرسلين إلي فرعون مصر وملئه ... يدعوان إلي عباده الله الواحد الأحد ، وبيان ما جري بينهما وبينه من جدل ، وقيادته بني إسرائيل عبر البحر الأحمر إلي سيناء ، وما تبع ذلك من وقائع كبرى في حياة اليهود ... وعودتهم لعبادة العجل ... كل هذا يمكن أن يكون قصة كاملة عن نبي الله موسى – عليه السلام – .

أما نبي الله داود وابنه سليمان – عليهما السلام – ، فلهما دور كبير في إنشاء دولة بني إسرائيل ومن ثم ورد ذكرهما في القرآن الكريم بما يتفق وشأنهما في الفهم ، والعلم ، والحكم ، والملك ، وقد ورد اسم داود – عليه السلام – في ستة عشر موضعاً ... ، وكذلك سليمان – عليه السلام – فقد ورد ذكره في ستة عشر موضعاً .

ولما كان للنصارى مواطن ومركز في الجزيرة العربية ، خاصة نجران ، وكان أحبارهم يترددون ويمرون بمكة ، وتقع أديرة رهبانهم في طريق تجارة أهل مكة ، وهم أقل خصومة للدين الخاتم من اليهود .. فإن القرآن الكريم بين لهم حقيقة نبيهم ، فذكر أنه عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ، وأمه الطاهرة

لهم حقيقة نبيهم ، فذكر أنه عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ، وأمه الطاهرة البتول المصطفاة مريم ابنة عمران ، ثم ذكر ابن أختها يحي – عليه السلام – المسمي في الإنجيل يوحنا المعمدان ، كما ذكر زوج أختها زكريا – عليه السلام – الذي كفلها ، وذكر كلامه في المهد وأصول دعوته ، ومعجزاته التي أيده الله بها ... وقد ورد اسم المسيح أو عيسى ابن مريم في ثلاث عشرة سورة ، ذكر فيها اسم المسيح إحدى عشرة مرة ، وذكر عيسى – عليه السلام – خمسا وعشرين مرة ، وابن مريم ثلاثاً وعشرين ، ومريم أربعاً وثلاثين مرة .

كما ورد ذكر يونس – عليه السلام – أربع مرات في سورة النساء ، والأنعام ، ويونس ، والصافات . وذكر بوصفه مرة واحد في سورة الأنبياء ، وورد – كذلك إدريس – عليه السلام – المسمي في التوراة باسم خنوخ أو أخنوخ، لكتفي القرآن الكريم بقوله تعالي فيه : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١) .

وذكر إسماعيل – عليه السلام – ابن إبراهيم أبو العرب المستعربة أو العدنانيين اثنتي عشرة مرة ، وقد وردت في القرآن الكريم آيات فيها أسماء الأنبياء والرسل بغير تفصيل وذلك كما جاء في قوله – تعالي – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)، وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) وقال سبحانه :﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤) ، وقال تعالي : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى

---

١ – سورة مريم الآيتان رقم : (٥٦ ، ٥٧) .
٢ – سورة آل عمران الآية رقم : (٣٣) .
٣ – سورة آل عمران الآية رقم : (٨٤) .
٤ – سورة الأنبياء الآية رقم : (٨٥) .

وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه :﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (٢) .

والمتأمل للقصص النبوي في القرآن الكريم – عدا قصة يوسف – يري تعدد المشاهد للنبي في أكثر من سورة ، هذه المشاهد جزء من القرآن الكريم ، يجري عليها ما يجري على سائر القرآن الكريم ، من حيث كونها كلام الله المنزل على النبي – الخاتم (ﷺ) بنصه وحرفه ، جاءت لهداية الناس جميعاً ، وتثبيت فؤادهم ، والعودة بهم إلي دين الله الحق ... ولا يعد في ذلك تكراراً ، بل هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، تتجلي فيه روعة الكلمة ، وحسن بيانها ، وقد سيقها ، فينتفع بما فيها من مقاصد وتوجيهات ....

كما أن هذه المشاهد القصصية لا تخلو عن تزكية أنبياء الله – تعالي – وحسن آدائهم لرسالات ربهم ، وصبرهم على أذي قومهم ، وقولهم المتكرر : **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ، ونصر الله – تعالي – لهم ....

وأن استعمال القرآن الكريم ألفاظ : أنباء ، ونبأ ، وأخبار ، وحديث ، وذكر ، حين ذكر الأنبياء والرسل ، لإدراك حقيقة هذا الخطاب الإلهي المتناول عنهم ، فينصرف بذلك – عن القرآن الكريم – مفهوم القصة بالمعني المتعارف في المذاهب الأدبية المختلفة ... ومن ثم يكون الإعجاز الإلهي من خلال خطابه القصصي قال تعال : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، وقال جل

---

١ – سورة الأنعام الآيتان رقم : (٨٥ ، ٨٦) .

٢ – سورة النساء الآيتان رقم : (١٦٣ ، ١٦٤) .

٣ – سورة الأعراف من الآية رقم : (١٧٦) .

شأنه : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ (١)وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ﴾ (٢) فالقصص يقص ، والرؤيا تقص ، والأنباء تقص ، والأخبار تقص ، والأحكام تقص ، وأعمال الرسل تقص ، وأسماؤهم تقص .... فالقص ليس مقصوراً على الرواية ، أو القصة ، وإنما يستعمل كذلك في الذكر ، والسرد ، والتلاوة وما إلي ذلك .....

من هذا البيان يتبين لنا :

– أن قصة يوسف – عليه السلام – استأثرت وحدها بسورة كاملة ، بينما جاء أنباء جميع الرسل الآخرين في العديد من المواضع في القرآن الكريم .

– أن يوسف – عليه السلام – لم يذكر في سورة أخرى مقرونا بشيء من حياته ، وإن جاء فقد جاء سرداً – أي ذكر الاسم فقط – .

– أن سورة يوسف – عليه السلام – خلت من ذكر أي نبي سواه ، وجاءت مكتملة في موضع واحد من القرآن الكريم ، الأمر الذي لم يجتمع لغيرها من أنباء الرسل ، وجاءت متصلة الوقائع ، اتصالاً بدأ بمقدمة أحداثها ، وانتهي بخاتمتها ... بحيث يستطيع القارئ أو السامع أن يعرف الحدث وتطوره ، وكل شخصية ودورها ، دون أن يقطع السياق أحداث قصة سواها ... فجاءت القصة بتمامها وكمالها ، بدءاً وختاماً ...

– أن في سور القرآن الكريم من المشاهد والوقائع ، التي تمر في آياتها الكريمة مروراً سريعاً ، لا تستغرق بضع آيات ، ما تحوي عناصر قصصية لا حدود لها ... وذلك كقصة أصحاب الحديقة ، الواردة في سورة القلم .. إنهم الذين خرجوا في ظلال الليل ليحصدوا ثمارها ، خوفاً أن يشركهم فيها عمالهم الفقراء ، فإذا هي احترقت ، لم يبق فيها ثمر يجني ... فعادوا إلي صوابهم ، وآمنوا بربهم .

---

١ – سورة يوسف من الآية رقم : (٥) .

٢ – سورة الأعراف من الآية رقم : (١٠١) .

إن القارئ لكتاب الله – تعالي – يجد أن آياته آيات صدق ، وما جاء به عين الحق ، ارتفع عنه الخلاف ، وعجزت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ، له نظامه الثابت المغاير لنظام كلام البشر من حيث الصياغة ، والمبني ، والأسلوب ، والمعني ، والأداء الموسيقي ...

هذا المنهج الثابت من حيث الصورة والشكل ، له نظام داخلي ثابت كذلك، قد لا يقف عليه الإنسان إلا بعد روية وتثبيت ، ذلك أن أصل المنهج الخطابي في القرآن الكريم قائم على قواعد ثابتة لا تخرج عن فطرة الإنسان المفطور عليها .. ونواميس الكون المسخرة للإنسان .... !!

من عناصر المنهج الخطابي :

أولاً : أن القرآن الكريم إذا ذكر الخير والشر ، قدم الخير على الشر ، كما يقدم الحسنات على السيئات ، والثواب على العقاب ، والجنة على النار ، والتبشير على التنفير .

ثانياً : أن القرآن الكريم إذا ذكر القليل والكثير ، رجح جانب القلة على الكثرة .

ثالثاً : أن القرآن الكريم إذا ذكر الجهاد ، ودعي إلي ذلك ، قدم جهاد المال على النفس .

رابعاً : أن القرآن الكريم إذا ذكر أنعم الله على الإنسان قدم السمع على البصر .

خامساً : إن القرآن الكريم إذا ذكر العبرانيين ، وعدد نعمه عليهم ... ، سماهم باسم بني إسرائيل ، وإذا ذكرهم في موضع السخط سماهم اليهود أو الذين هادوا .

وإذا بدأنا بأول هذه العناصر وهو تقديم الخير عن الشر ... فإننا نرى الكثير من الآيات والكثير من المشاهد ، ويكفينا في ذلك قصة آدم في القرآن الكريم ..

لقد خلق الله – عز وجل – آدم ، وجعله صالحاً قابلاً للخير ، وعلى إتيانه قادراً ، وإنه وإن كان قد وقع في المعصية ، فلأنه لم يقاوم غواية الشيطان ، وقد أمر بالتحصن منه بطريق الإيمان .. فالغواية قد أتت لآدم – عليه السلام – من خارج نفسه ..... ومن الآيات الدالة على ذلك ، قوله الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١) ، وقوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) وقوله سبحانه : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

فهذه الآيات ناطقة بأن آدم – عليه السلام – محل رضا من ربه جل وعلا ... لولا أن الشيطان قد قام بإغواء آدم وزوجه ، فوسوس لهما ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وفي ذلك يقول الله – تعالى – : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) .

---

١ – سورة الأعراف الآية رقم : (١١) .
٢ – سورة الحجر الآية رقم : (٢٩) .
٣ – سورة الأعراف الآية رقم : (١٩) .
٤ – سورة البقرة الآيات رقم : (٣٦ – ٣٨) .

هذه المشاهد من الآيات الكريمة تجملها هذه الآيات ، والتى يقول الله – تعالي – فيها : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١)

فالخير أصل الإنسان ، والشر طارئ عليه ، والأصل هو الأساس في الإنسان ، وما كان طارئاً عليه ليس أصلاً فيه ، فمن تبع الشيطان تردي إلي أسفل سافلين ، ومن تاب وآمن وعمل صالحا فلهم أجر غير ممنون ...

وعلى هذا فقد جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلي تقديم الخير على الشر ، والتبشير على التنفير ... يقول الإمام الرازي في تفسيره :

" أن المراد من الإنسان هذه الماهية ، والتقديم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل ... والحسن : السيرة الباطنة ... " (٢) .

" فالحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم .. وتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل ، فيه فضل عناية بهذا المخلوق .. وتتجلي هذه العناية في خلقة وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم تكوينه الروحي العجيب .

---

١ – سورة التين الآيات رقم : (٤ – ٦) .

٢ – مفاتيح الغيب – الفخر الرازي ١٦ / ٥٠٢ .